الفصل الثالث

التاريخ التقافي
للعصر الحجري القديم والوسيط

obeikandi.com

إذا نظرنا إلى خرائط توزيع حضارات العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط نجد أنها تتوزع في غرب وجنوب خط يمتد من شرق إنجلترا إلى شمال الهند، فقد عثر على أدوات حجرية تنتمي إلى هذا العصر في معظم مناطق إنجلترا وفرنسا وجنوب إسبانيا، كما وجدت في جنوب إفريقيا حتى (بورت إليزابيت)، وعثر عليها أيضاً في مصر وسورية وآسيا الصغرى والهند وألمانيا وبلجيكا، ويبدو أن القارة الوحيدة التي خلت من هذه الأدوات هي أستراليا.

في حالات عديدة يصعب التفريق بين الأدوات والأسلحة التي صنعها الإنسان وبين تلك التي أنتجتها عوامل الطبيعة مصادفة، ولكنها تثير الالتباس فتبدو وكأنها مصنعة بشكل مقصود. وللباحثين طرائقهم في التمييز بين الآثار الحقيقية والوهمية ولهم مصطلحاتهم الخاصة لوصف وتصنيف هذه الآثار.

كان الإنسان الأول يعيش في العراء، أو في حمى الصخور، وفي المغاور والكهوف، وكان الصيد وجمع الثمار والجذور والحشرات المصدر الرئيسي للغذاء، وكان يستخدم أشياء كثيرة من الأخشاب أو الجلود أو العظام إلا أنها تفسخت نهائياً ومنذ زمن بعيد جداً. ولذلك فإن الأدوات المصنوعة من الصوان والأحجار بالإضافة إلى بقايا الحيوانات التي كان يصطادها الإنسان، هي على الأرجح كل ما علينا أن نعتمد عليه في محاولة إعادة بناء الحياة أثناء أزمنة العصر الحجري القديم.

وبشكل عام، فإن تلك الأدوات تكشف عن تطور بطيء وتدريجي من الأداة الحجرية الواحدة المتعمَّدة مع عدد قليل من الرقاقات الخشنة، إلى مجموعة من الأدوات الحجرية والعظمية ذات التنوع والاختصاص الكبيرين. وبكلمات أخرى - كما كانت عليه الحال في الأزمنة التاريخية - كان يسير الاتجاه من البسيط إلى المركب ومن مرحلة عدم الاختصاص إلى مرحلة، بل إلى مراحل، من الاختصاص عالية نسبياً[1].

وعندما يعثر الأنثروبولوجي الأثري على عدد من قطع الصوان في موقع معيّن يقوم بفرزها وتبويبها على أسس علمية محددة، فهو يفرز الشظايا عن اللب، ثم يفرز الأدوات المشغولة بدقة عن القطع المهملة أثناء عملية التصنيع، ويقوم بعد ذلك بتحديد زمنها عن طريق تحديد عمر طبقة الأرض التي وجدت فيها، وكذلك عليه أن يحدد الطابع الثقافي الذي يمتد غالباً لفترات طويلة من الزمن. كانت بعض الثقافات تستخدم الشظايا بنسبة أكبر من اللباب، وكان البعض الآخر يستخدم السكين ذات الحد الواحد، وهناك ثقافات توصلت إلى السكين ذات الحدين، وتتميّز ثقافات أخرى بكثرة الفؤوس الحجرية وما إلى ذلك. ويقوم الأنثروبولوجي بتحليل تلك المركبات الثقافية إلى عناصرها الأولية البسيطة حتى يمكن مقارنتها بغيرها وتحديد معالم عملية نمو الثقافات.

يوجد الصوان عادة في كتل صغيرة، وتتحطم بعض الصخور طبيعياً بفعل الحرارة والبرودة، ولذلك كان الإنسان القديم يلتقط قطع الصوان الصالحة من سطح الأرض أو قرب ضفاف الأنهار... واستطاع الإنسان أن يجد وسيلة لتكسير قطعة الصوان الطبيعية إلى شظايا صغيرة تكون أكثر ملاءمة للقيام بوظائف القطع والشحذ والصيد، فبعد أن قام الإنسان بقد الحصى أخذ يصنع شيئاً فشيئاً وعلى مر مئات ألوف السنين بعض الأدوات المنتظمة الأشكال، فكان ذلك أقرب إلى التطور البطيء منه إلى الاكتشافات أو الارتقاءات العنيفة. بدأ ذلك في إفريقيا الشرقية حيث ظهرت إحدى أهم الأدوات القبتاريخية القديمة، وهي الفأس ذات الحدين المقدودة والمهذبة على حديها. ولم يعد المشظّي يكتفي بقد الحجر أو بثلمه، إذ أخذ

[1] هاري. ل. شابيرو: الإنسان والحضارة والمجتمع، ترجمة: عبد الكريم محفوض، وزارة الثقافة - دمشق 1978، ص100.

يعطيه شكلاً أشبه ما يكون بشكل اللوزة الكبيرة. وقبل 500.000 سنة حصل تقدم بطيء في صناعة الأدوات عندما برزت في عدد كبير من المناطق المحيطة بالبحر المتوسط طريقة جديدة في تشظية الأدوات قوامها تهيئة النواة الصوانية بشكل يسمح بالحصول على أداة ناجزة بمجرد ضرب الحجر ضربة نهائية. وقد عرفت تلك الطريقة بـ «اللوفالوازية» نسبة إلى موقع (لوفالواز- Levallois) في ضواحي مدينة باريس، حيث عثر على أعداد كبيرة من الأدوات المصنوعة بحسب تلك الطريقة. ومن الواضح أن أشكال الشظايا المستخرجة على هذا النحو قد نجمت عن عملية تحضير وتفكير وتقرير[1].

ولكن صناعة تشطيف الحجر وصلت إلى أعلى مراحلها عندما توصلوا إلى اكتشاف ما يسمى (التشطيف بالضغط) حيث كان الصانع يأخذ شطفة كبيرة أو سلاحاً ويقبض عليه في راحة كفه الأيسر فوق قطعة من جلد الغزال، ثم يمسك في يده اليمنى بقطعة من العظم طولها نحو 10 سم مدببة في أحد طرفيها ويضغطها إلى الأسفل في حرف الشطفة حتى يستخلص منها شظية، فإذا فرغ من الحواف في أحد وجهيها يديرها ويكرر العملية نفسها في الوجه الآخر.

ويمكننا أن نجمل كيفية صناعة الأدوات الحجرية بالأساليب التالية:

1- بضرب العقدة على حجر ثابت يدعى بالسندان.
2- بضرب العقدة بمطرقة حجرية أو خشبية محمولة باليد.
3- بضرب أداة وسيطة على المكان الصحيح الذي يجب اقتطاع الرقاقة منه.
4- التشطيف بالضغط.

إن الصياغة النهائية لعديد من الأدوات كانت تجري بتفريض ثانوي لها يدعى بالرتوش Retouch وذلك إما بطرقها بشكل خفيف جداً أو بتقشيرها بواسطة الضغط للوصول إلى هذه الغاية. وهذه هي النماذج الرئيسية الأربعة للأدوات:

1- أدوات من نواة صلبة ذات وجهين وتسمى بالفؤوس اليدوية، وهي أدوات ذات حدين قاطعين متقابلين.

2- أدوات وحيدة الحد وتسمى بالقواطع أو الأدوات القاطعة، وهي مصنوعة

---

[1] هنري سان بلانكا: الإنسان الأول، ترجمة: حسان سركيس، دار المشرق - بيروت 1990، ص 50-51.

من الصخر ويمكن ترقيقها من جانب واحد (القواطع)، أو من جانبين (الأدوات القاطعة).

3-الأدوات الرقائق، وهي أدوات كبيرة طولانية أو بيضوية وذات جزء محدب، ويمكن الحصول عليها إما بطريقة السندان، وإما بطريقة الضرب المباشر بمطرقة حجرية أو بهراوة خشبية.

4- أدوات ذات شفرات، وهي بمعنى ما رقاقات حسنة الصنعة ناتجة عن نوى صلبة محضّرة خصيصاً لهذا الغرض، والشفرات فيها نحيلة وطويلة نسبياً، وهي أدوات متوازية الجوانب، ونسبة الطول إلى العرض فيها 1/2 ، وتنتج إما بطرق مباشر أو غير مباشر.

وبشكل عام، فإن مجموع الأدوات المصنوعة التي تطبع دَوْرَي العصر الحجري القديم والوسيط، تتميّز بأدوات من النوى الصلبة إضافة إلى وفرة الأدوات (الرقائق)، بينما تطغى على الدور الأخير من هذا العصر الأدوات ذات الشفرات[1].

أنماط العيش
في العصر الحجري القديم والوسيط

إن الشعوب البدائية التي توجد الآن، أو التي انقرضت منذ وقت قريب، تمثل أدنى المراحل التي مرت بها البشرية، وإنه بناءً على ذلك فإن ترتيب الشعوب والمجتمعات التي توجد الآن حسب درجة تقدمها وارتقائها إنما يعطينا صورة واضحة ومتكاملة عن كل المراحل التي مرَّ بها المجتمع الإنساني منذ وجد حتى الآن.

ويمكن اعتبار هذه الشعوب نماذج ومثلاً افتراضية لأنها تمثل التاريخ المبكر للجنس البشري بشكل عام، وتاريخ النظم بشكل خاص. ولا تزال قبائل الهنود الحمر تعيش على جمع نبات الرز الفصلي بكمياته الوافية في منطقة البحيرات الكبرى.

1- جامعو القوت:

لعل أفضل وصف لمعظم الرئيسيات المعاصرة، وكل الأشكال السابقة على الإنسان، أنها كانت من ملتقطي الطعام، حيث تعتمد في طعامها - أساساً - على

---

(1) هاري. ل. شابيرو: الإنسان والحضارة والمجتمع، ص 106-107.

الأغذية النباتية، وربما تكملها ببعض الحشرات والقوارض الموسمية والحيوانات الصغيرة الأخرى التي يمكن الإمساك بها باليد.

ويقتصر وجود ملتقطي الطعام على المناطق المعتدلة أو الاستوائية، حيث تتوافر على مدار العام احتياجاتهم من الأغذية النباتية الصالحة للأكل، دون حاجة إلى معالجتها قبل أكلها. وهم يقضون معظم ساعات مشيهم في مهمة يومية مستمرة من أجل جمع الثمار والجذور والبذور والبراعم التي تستهلك في الحال، مع وجود قدر ضئيل من المشاركة، أو عدم وجودها على الإطلاق. ولأنهم لا يمتلكون الأواني، فإن عليهم أن يذهبوا حيث يوجد الطعام، فلا ينقلون الطعام إلى المعسكرات. ويتعيّن على مثل هذه الجماعات أن ترحل كل يوم تقريباً، ذلك لأن الموارد في أي منطقة سرعان ما تستنفد، كما أن الموقع الذي توجد فيه الاحتياجات الموسمية من الطعام يتغيَّر هو الآخر. ولم يتغيَّر هذا النمط إلا حينما تمكنت الأشكال الإنسانية الجديدة من تطوير تكنولوجية معينة[1]. والأمثلة على هذا النمط من المعيشة التي يقضي الإنسان طوال وقته في بحث مستمر عن الطعام، قبائل البوشمن في وسط إفريقيا وبعض القبائل المتواجدة في المناطق الصحراوية من قارة أستراليا، حيث الظروف المعاشية الصعبة والقاسية لدرجة اعتبار الصغار والشيوخ عالة على الجماعة البدائية.

وتختلف البيئات الطبيعية في مواردها النباتية والحيوانية، فهناك مناطق تكون كمية الأمطار والحرارة فيها ملائمة لنمو نباتات فصلية وبكميات كبيرة تكفي حاجة الإنسان البدائي الذي صادفه الحظ أثناء عملية البحث عن الطعام في الاهتداء إليها، مما اضطره إلى التلاؤم مع هذه البيئة وما ينبت فيها. إذ أصبح يحمي هذه النباتات الفصلية ويقوم بجنيها أثناء فصل النضج، ثم يدقها ويخزنها أو يطحنها بجواريشه اليدوية، وصار يخزنها في أوان مصنوعة من الحجر أو الطين كما كان في منطقة فلسطين في الألف العاشر قبل الميلاد، حيث كان إنسان هذه المنطقة يعيش على ما يجمعه من نبات القمح والشعير البري، وذلك قبل أن يطرأ تغيير على المناخ بميله نحو الجفاف[2].

---

[1] رالف بيلز وهاري هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ص 280-281.

[2] د. علي عبد الله الجباوي: الجغرافيا التاريخية، جامعة دمشق، 1982، ص 254.

2- الصيادون:

لعبت مهنة الصيد دوراً كبيراً في تطور الإنسان بيولوجياً واجتماعياً، فمن الناحية البيولوجية كان يقدم الصيد للإنسان الطعام اللحمي الذي يتضمن المواد الأساسية التي يحتاج إليها الجسم ولاسيما البروتينية منها والزلالية. ولعب الغذاء اللحمي دوراً مهماً في تطوير دماغ الإنسان كماً ونوعاً نتيجة الأحماض الأمينية التي تغذي الدماغ، كما أن الغذاء اللحمي كان وما زال يعطي الجسم القوة والمتانة الجسدية.

وكان الصيد يفرض على الإنسان حياة جماعية لمطاردة الحيوانات وصيدها وتقطيع جثتها وحملها إلى صغاره ونسائه الذين ينتظرون الرجال الذين ذهبوا إلى الصيد، وهذا بدوره يؤدي إلى خلق علاقات اجتماعية عن طريق العمل سواء في صنع الأدوات وتطويرها، أو أثناء عملية الصيد ذاتها للجماعة البدائية التي يضطر أفرادها إلى التفاهم عن طريق اللغة التي لم تكن نامية ومتطورة في بادئ الأمر. ولقد تطورت ملكة اللغة عند الإنسان عبر تطور الأصوات المنطوقة التي كان يطلقها، إذ إن كل صوت كان يعبِّر عن فكرة قائمة بذاتها إلى كلمات منطوقة لكلّ منها معناها التجريدي الخاص بها. وهكذا وعبر العمل ونمط المعيشة نشأت اللغة[1].

3- اختراع القوس:

وأثناء الفترة التالية، كما في الفترات السابقة، اعتمد الناس في معيشتهم على الصيد بشكل رئيس. وقد بدأت هذه الفترة قبل نحو 35.000 سنة عند أول تراجع جزئي للجليد وانتهت نحو سنة 7.000 ق.م عند اختراع الزراعة.

كان الرمح الخشبي، ذو الأسنة المصنوعة من مواد مختلفة، سلاح الصيادين الرئيس أثناء معظم العصر الحجري القديم الأعلى. وكان الرمح ما يزال السلاح الوحيد الذي يستعمله سكان تسمانيا والقبائل التي تسكن الصحراء الواقعة في القسم الغربي من أستراليا. ولأجل استعمال هذا الرمح كان الصياد يدب على فريسته حتى يصبح على مدى الرمية السديدة، ويستطيع الصياد بالمران أن يصل إلى الإحكام والتسديد الضروريين في الرمي. وما يزال الرمح شائع الاستعمال في حياة

---

(1) المرجع السابق، ص 230.

obeikandl.com

الصيد اليومية بين معظم سكان أستراليا الأصليين الذين يجهلون استعمال الأقواس والنشاب التي ظهرت متأخرة من الناحية الأثرية في بقاع أخرى من العالم. فقد أُدخلت القوس إلى أوروبا الغربية في مطلع العصر الحجري الوسيط من إفريقيا، على أرجح الاحتمالات، وذلك عن طريق إسبانيا. ولا نعرف متى ظهرت القوس في إفريقيا.

إن المبدأ الذي تعمل بمقتضاه القوس هو المبدأ نفسه الذي يسير عليه النابض (الزنبرك) فأنت تسحب الوتر إلى الوراء ببطء، ثم تطلقه فجأة، وجميع الطاقة التي أودعتها فيه قليلاً قليلاً تنطلق دفعة واحدة في مثل لمح البصر. ويستطيع الرجل الذي يملك قوساً جيدة أن يطلق سهماً بقوة انطلاقية قدرها خمسة أحصنة، إلى جانب أيل واقف بأمان، وإذا أصاب السهم جزءاً من جسم الحيوان خالياً من العظم فإنه يخترقه ويخرج من الجانب الآخر. ولقد أصاب الهنود من سكان السهول في أمريكا بسهامهم ذوات الرؤوس الحديدية ثور البيزون وجعلوها تخترق جسمه. وكان باستطاعة الهنود القدماء أن يفعلوا الشيء نفسه بسهام رؤوسها من الصوان.

وقد زادت القوس من مدى المقذوف، كما زادت من إحكام الإصابة من مسافة بعيدة، لاسيما إذا كان السهم مريشاً. والقوس سلاح صامت فإذا أخطأ الصياد وطاش سهمه فإنه يستطيع أن يرمي سهماً ثانياً دون أن يروّع القطيع، وبينما لا يستطيع الرمَّاح أن يحمل معه أكثر من ثلاثة رماح، يستطيع القواس أن يحمل في جعبته عشرين سهماً، وبإمكانه أن يطلق هذه السهام بتتابع سريع كما لو أنه يطلق سلاحاً أوتوماتيكياً. وقد ظلت القوس السلاح الفعال المفضل عند الإنسان حتى بلغت البندقية غاية الإتقان. ويصعب أن يجد الصياد سلاحاً خيراً من القوس، ولاسيما إذا كان يملك كلب صيد حسن التدريب[1].

وتعتبر قبائل البوشمن في صحراء كلهاري بجنوب غرب إفريقيا أفضل ممثل لحياة الصيادين. ومع أن أفراد البوشمن يستخدمون القوس والسهم، إلا أن الصيادين عادة ما يحملون أشياء أخرى كثيرة. ويستخدم هؤلاء أدوات قاطعة لذبح الفريسة، كما يستخدمون عصا الحفر (في الوقت نفسه الذي يستخدمونها كحربة) في استكشاف أية جذور أو درنات صالحة للأكل يجدونها أمامهم، فضلاً عن استخدامهم للشباك في النقل، حيث تمثل المطلب الأدنى في هذا المجال. والملاحظ أن

---

[1] Coon, op. cit., pp.118-119.

الحقائب التي تتخذ شكل الشباك شائعة الاستخدام لدى الشعوب البدائية. فالحبال المصنوعة من ألياف النبات، أو شعر الحيوان يمكن تشكيلها بلف الخيوط على الفخذ، ثم عقد الحبال بعضها ببعض. وعادة ما يستخدم مكّوك من الخشب أو العظم لحمل الحبل، كما تستخدم أداة لوضع العقد على مسافات متساوية ودائماً تنتقل معسكرات البوشمن، وذلك بسبب استنفاد الفرائس التي تعيش في مناطق متباعدة، كما أن المأوى والملبس بالنسبة لهم يمثل الحدّ الأدنى[1].

ويبلغ مجموع الذكور البالغين سن الصيد في كل عصبة بين الأربعة والعشرة. وهؤلاء الرجال يؤلّفون في الأقل، فريق صيد واحد. ويستيقظ أعضاء الفريق قبل الفجر، وبعد أن يتناولوا فطوراً سريعاً، يأخذون أدوات الصيد، ويذهبون إلى المكان الذي يعتقدون أن حيوانات الصيد موجودة فيه. وأول مهمة يقومون بها هي تعيين أماكن الحيوانات ومكامنها. ولأجل القيام بهذه المهمة قد يضطرون إلى الانتشار، ولكنهم يظلون محافظين على الاتصال فيما بينهم بإشارات يتفقون عليها، كمحاكاة بعض أصوات الطيور التي تزعج فريستهم أقل إزعاج ممكن. وعندما يشاهدون الحيوانات، يتسلل بعض أعضاء الفريق، والصغار منهم عادة، من ورائها ويدفعونها باتجاه الصيادين الذين يتربصون بها لقتلها، أو ليقطعوا عليها خط الرجعة ويقتلوها أثناء فرارها.

والصيادون المعوّل عليهم في قتل الحيوانات إما أن ينتظروا اقتراب فرائسهم، وإما أن يتقدموا نحوها متنكرين. فإذا كانت الفريسة أيلاً لبس الصياد قناعاً يعلوه زوجان من القرون قد جوفا لتخفيف وزنهما. وقد يحمل عصوان يمثل بهما ساقي الأيل الأماميتين، بالإضافة إلى قوس وكنانة مليئة بالسهام، وبمساعدة هذا التنكر، وبالتقدم في اتجاه مغاير لاتجاه الريح، قد يصل الصياد إلى مسافة بضع ياردات من الفريسة. وعندما يكتشفه الحيوان يكون لديه ما يكفي من الوقت لرشقه ببضعة سهام. أما إذا كانت الفريسة لامة، فإن الصياد يضع على رأسه غطاء مصنوعاً من الفرو الأبيض الذي يشبه ناصية ذلك الحيوان. والملاحظة الدقيقة، والمحاكاة المتقنة لعادات الحيوانات، تزيدان من فرص نجاح الصياد[2].

---

[1] رالف بيلز وهاري هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص 294.

[2] Coon, op. cit., pp.120-121.

أما تكنولوجيا الهنود الذين يعيشون في السهول شبه القاحلة في أمريكا الشمالية ذات الشتاء القارس، فهي تكنولوجيا أكثر بعداً عن الدقة والتطور. وتدور حياة هنود السهول حول الجاموس، كما أنها تعتمد - بدرجة أقل - على الظبي والأيل وغيرها. وأثناء فصل الصيف يشكل الجاموس قطعاناً ضخمة، لكنه يتفرق أثناء فصل الشتاء في شكل جماعات صغيرة تحمي نفسها داخل كثير من الممرات أو الأودية. وكذلك نجد شعب الكرو Crow يشكل أثناء فصل الصيف جماعات كبيرة الحجم مؤلّفة من مئات الأشخاص تتبع قطعان الجاموس الضخمة. وأثناء فصل الشتاء نجد هذه الجماعات تنقسم إلى زمر صغيرة تتألّف كل منها من أسرتين أو أكثر، حيث تعسكر في مناطق محمية متناثرة إلى حدّ كبير. وما لم يكن مخزون الطعام وفيراً، فإن الفرائس المتباعدة لا تكفي لإطعام جماعات كبيرة. أما الأدوات والمعدات التي يستخدمها هنود السهول فهي ليست أكثر تطوراً ودقة من تلك التي يستخدمها شعب البوشمن. فالأقواس والسهام هي أكثر معدات الصيد أهمية، ولم يكن القوس والسهم معروفين لدى صيادي العصر الحجري القديم الأعلى، كما أن ظهورها المبكر قد تم على وجه التحديد في ثقافات عصر ما بعد الجليد الانتقالية. ومع ذلك فقد كانت الأقوس والسهام معروفة لدى الصيادين القدامى، باستثناء بعض الصيادين الأستراليين الذين كانوا يعيشون في المناطق الداخلية والجنوبية. وفضلاً عن ذلك فإن هنود السهول يستخدمون الحراب في الصيد والقتال، كما يستخدمون الدروع في الحرب. يضاف إلى ذلك تشكيلة من أدوات القطع والحفر، بما في ذلك معدات تحويل الجلود إلى ملابس وتشكيل الخشب والمطارق الخشبية والمدقات التي تستخدم كأوتاد تربط بها الحيوانات، أو وقود لتسخين اللحوم المجففة وتمر العليق. يضاف إلى ذلك شيء مهم هو الأواني الجلدية التي تشبه المظروف، والتي يطلق عليها (البارفليتش) parfleche حيث تستخدم في تخزين أو نقل أشياء صغيرة مختلفة، وإن كانت تستخدم - بصفة خاصة - في تخزين ونقل طعام معد يعرف باسم البميكان Pemmican (طعام مركز يتألّف من لحم مفروم مقدد ممزوج بالدهن). ويصنع هذا الطعام بأن تقطع اللحوم إلى شرائح وتجفف ثم تدق بحيث تتحول إلى مسحوق. ويتم بعد ذلك مزجها بدهن منصهر، وأحياناً تمر العليق أو الثمار. وبفضل العناية الجيدة يمكن الاحتفاظ بهذا الطعام لفترة معينة.

وتعد الأوعية الجلدية ضرورية بالنسبة لكثير من الصيادين والرعاة، ذلك أن مرونتها وطول عمرها يمثلان مزايا عديدة للشعوب المتنقلة.

ويتخذ جانب من الصيد السنوي شكل نشاط جماعي على درجة عالية من التنظيم؛ حيث يحيط الأفراد بقطعان الجاموس الضخمة، ثم يهاجمونها في وقت واحد، أو يسوقونها إلى مكان شديد الانحدار، أو إحدى الزرائب حيث يقتلونها. وأثناء فصل الشتاء تعيش الأسر على اللحوم التي تراكمت نتيجة عمليات الصيد وأنواع أخرى من الطعام فضلاً عن الحيوانات المنعزلة التي يمكن صيدها في المناطق المغطاة بالماء. والواقع أن استخدام الكلاب كحيوانات نقل يجعل هذه الدورة السنوية ممكنة إلى حد ما. وفي بعض الأحيان نجد الكلاب تحمل الحقائب، وإن كان الشيء الأكثر شيوعاً هو أن تجر الكلاب العربات البدائية (أو ما يطلق عليها الترافوا Travois)، وهي عبارة عن مسطح يستند إلى دعامتين. ويتم جر هذه العربات بسحب أحد طرفي الدعامتين، في حين يسحب الكلب الطرفين الآخرين ويسندهما في الوقت نفسه.

إن مناخ الشتاء القاسي يجعل من الملابس ضرورة لا غنى عنها. ويتم إعداد الملابس أو تفصيلها من جلود الإلكة أو الظبي. كما تستخدم جلود الجاموس ذات الفراء كثياب أو بطانيات. بالإضافة إلى ذلك فإن هنود السهول يستخدمون واحداً من أفضل المآوي التي يمكن نقلها من مكان لآخر وهو ما يعرف باسم (التيبة Tipi) «خيمة مخروطية الشكل». وتستند هذه الخيمة على عدة دعامات تغطى بجلود حيوانات تم تشكيلها وضمها لبعضها البعض بفضل الحياكة. وفي قمة التيبة توجد فتحة بسيطة للتهوية تسمح باستمرار اشتعال النيران في الداخل. وبالإمكان تغيير أو استبدال الجدران حتى يتحقق مزيد من التهوية أثناء المناخ الدافئ. ويمكن نصب التيبة أو فكها بسرعة، كما يمكن نقلها عبر مسافات بعيدة نسبياً[1]. هذه هي الوقائع المؤكدة التي تبدو من دراسة بقايا أقدم إنسان ظهر في عصر البليستوسين ولم يكن معروفاً أسلوب حياتهم، أو بماذا يقتاتون.

ومن المحتمل أن هذا الإنسان كان يعيش على صيد الحيوانات والطيور، وصيد السمك والسلاحف، وعلى جمع الثمار والبيض، وعلى الجذور التي يقتلعها.

---

[1] رالف بيلز وهاري هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ص 296-297.

ولا بد أن بعض الناس كانوا حينذاك يلجؤون إلى الكهوف، وربما أقام آخرون ما يشبه الأخصاص من فروع الأشجار يأوون إليها، ولم يصل هؤلاء إلى المهارة في الصيد إلا بعد ملاحظة دقيقة طويلة لعادات الحيوانات، ولا بد أن نتائج هذا قد تجمعت في تقاليد خاصة بالصيد، كما كان عليهم أن يتعلّموا كيف يميِّزون بين النباتات المفيدة والنباتات الضارة وذلك بالخبرة والمران، ثم يكوّنون تقاليد خاصة بجمع الثمار أيضاً[1].

4- الحضارة الموستيرية:

كثيراً ما يستخدم مصطلح «الثقافة الموستيرية» للإشارة إلى البقايا الثقافية المتخلفة من العصر الحجري القديم الأوسط. أما الفترة الرئيسية للثقافات الموستيرية المختلفة في أوروبا، فكانت هي الفترة الباردة نسبياً التي سبقت عصر فورم الجليدي، وكذلك عصر فورم كله وهي تقع على وجه التقريب بين 100.000 و35.000 سنة مضت. وقد كان المناخ أكثر قسوة من المناخ السائد في أوروبا حالياً، ولكننا نجد في مقابل هذا أن حيوانات الصيد كانت موجودة بوفرة. فكانت توجد حيوانات الرنة، والثعلب القطبي، والأرنب البري القطبي، والبيسون (الثور الأمريكي الكبير)، والحصان والماموث، والكركدن (وحيد القرن)، وكذلك الحيوانات آكلة اللحوم، كالدب، والأسد، والنمر، والضبع، والذئب. وقد كان إنسان العصر الموستيري صياداً بالدرجة الأولى[2].

ولما كان هؤلاء البشر يسكنون الكهوف، هرباً من البرد القارس، فقد تركوا لنا تفاصيل أوفى عن حياتهم، عما تركه لنا السابقون لهم الذين كانوا يعيشون في العراء.

كان أصحاب الحضارة الموستيرية من ناحية الصناعة، يتبعون صناعة الشظايا، رغم أن بعضهم تعلّم صناعة النواة أيضاً. وكانوا يسيرون منكفئين على وجوههم، ولم يكن في استطاعتهم أن يرفعوا هاماتهم، وكانت لهم فكوك غليظة منحدرة لا ذقون لها، وكانت جباههم متقهقرة وعيونهم في محاجر عميقة تشرف عليها حواجب

---

[1] جوردن تشايلد: تقدم الإنسانية، ترجمة محمد السيد غلاب، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 48-49.

[2] المرجع نفسه، ص 238.

عظمية غليظة ناتئة مما أعطى سحنتهم شكلاً وحشياً، ولكن كان في استطاعتهم أن يتكلموا مع الذي ينظّمهم في جماعات تخرج للصيد. وكما يبدو من دراسة جماجمهم ومناطق اتصال ألسنتهم بحناجرهم، أن كلامهم كان مجرد همهمات.

وأما من الناحية الاقتصادية، فقد كان الموستيريون صيادين، وقد تخصصوا في طريقة اقتناص الثدييات القطبية بإيقاعها في الأشراك وذلك مثل (الماموث والخرتيت الصوفي)، ثم يجرّون جثثهم إلى فتحات الكهوف حيث تقطَّع وتقسّم. ولم يكن باستطاعة الأفراد أو الأسر الصغيرة، بطبيعة الحال أن تطارد الفريسة فقد كان صيد الماموث صناعة تستدعي تعاوناً جماعياً كبيراً، لأجل غاية اقتصادية واحدة.

ومن أهم ما يلاحظ على الموستيريين - تاريخياً - تلك العناية الفائقة التي أولوها لدفن موتاهم. فقد عثر على 12 هيكلاً نياندرتالياً في فرنسا مدفونة بعناية، حيث كان يعيش ذووهم. وقد بذلت محاولات بصفة عامة لحماية جثث الموتى. وقد عثر في (لاشابل) على بضعة هياكل عظمية، كل منها مدفون في حفرة غير عميقة، في أرض الكهف. وكان الرأس أحياناً يوضع فوق قطعة صخر، وقد أحيطت الجثة بقطع صخرية، من فوقها ومن حولها، لكي يخفف ضغط الأرض عنها، وقد لوحظ في أحد الهياكل أن الرأس فصل عن الجسد قبل الدفن، ودفن بمفرده. ولم تكن تلك القبور محفورة بعناية فحسب، بل كانت أيضاً تحفر حول المدفأة، لكي تدفئ أصحابها الذين يزودون بآلاتهم وبقطع كبيرة من اللحم.

كل هذه الطقوس دليل على نشاط الإنسان الذهني نحو أمور غير متوقعة، وفي اتجاهات غير اقتصادية، ولعل هؤلاء الموستيريين ذوي السحن الحيوانية قد ثارت مشاعرهم البدائية إزاء الموت واختطاف الأرواح، ولعلّ خيالهم سبح في كل مجال إزاء هذه الظاهرة، فهم يعتقدون أن الأسباب قد قطعت بينهم وبين الحياة الأرضية، ولكن ومض في مخيلتهم احتمال وجود حياة أخرى، تمتد بها حياتهم الأرضية، ويحتاج فيها الميت إلى بعض الأدوات وإلى شيء من الطعام. وقد كتب لهذا السلوك الحزين أن يكون تراثاً إنسانياً عريقاً لسلوك الإنسان، ذلك التراث الذي أوحى له بأن يشيد تلك الروائع من أمثال الأهرامات وقبر تاج محل[1].

تلا عصر الثقافة الموستيرية العصر الحجري القديم الأعلى، وهو عصر تغيّر

---

[1] المرجع السابق، ص 54.

ثقافي سريع من 40.000 - 12.000 سنة قبل الميلاد، وتنوع إقليمي أساسي. وتنسب كل البقايا الحفرية المرتبطة بالعصر الحجري القديم الأعلى إلى الإنسان العاقل لتميِّزها ببعض الخصائص الجوهرية الحديثة.

والملاحظ على الثروة الحيوانية - في هذا العصر - أنها كانت من النوع الخاص بالمناخ البارد، كما كانت تضم معظم الأشكال الحيوانية التي كانت موجودة في العصرين الحجري القديم الأدنى والأوسط. وكانت تجول في معظم أراضي مناطق أوروبا قطعان كبيرة من الخيول، وثور البيسون، والثيران العادية، والأيل الأحمر. أما حيوان الرنة فكان يحتل مكانة بارزة في معظم العصر الحجري القديم الأعلى.

أما الأدوات الحجرية فكانت من أنواع متباينة أشد التباين، فهناك الأدوات الموستيرية كالمكاشط الجانبية والأدوات ذات الأسنان. إلا أن معظم الأدوات كانت تصنع من نصال مفلوقة بعناية من نويات معدة لذلك بوساطة أداة مدببة بشكل غير حاد مصنوعة من العظم، كانت توضع في النواة كالإسفين، ثم يدق عليها بمطرقة من الحجر. وكانت مثل هذه النصال تستخدم مباشرة على الأرجح. والواقع أن الأدوات المصنوعة من النصال قد ظهرت أثناء العصر الأشيلي، كما نجدها منتشرة بقدر معقول في بعض المواقع التي ترجع إلى الثقافة الموستيرية.

وكانت المكاشط، وأدوات النقش، في المعادن والرخام، من بين الأدوات الجديدة المتنوعة التي شاعت في العصر الحجري القديم الأعلى، وكذلك المكاشط المزدوجة والمنقاش والمثقاب المزدوج، أو الأدوات المركبة الأخرى التي يوجد اثنان منها على الشطفة نفسها. كما أصبح تشكيل العظم، والعاج، وقرون الحيوانات، وما شابه ذلك، من الأعمال المتنوعة الفائقة الأهمية. ومن الأدوات التي كانت تصنع آنذاك: مثقاب الجلد أو الخشب، والإبرة ذات العين، وأدوات تسوية وتهذيب قضبان الرماح، ومدببات الرماح التي ازدادت صناعتها دقة وإحكاماً. ومن الأشكال الأولى للفن في هذا العصر نقش الرسوم، ونحت التماثيل الأنثوية الصغيرة. وأحسن الأعمال الفنية المعروفة عن ذلك العصر هي تلك الأشكال المنقوشة، أو المجسمة التي عثر عليها في الكهوف، والخاصة بالحيوانات أساساً، وتعد الثقافات الأورينياسية والسولوترية والمجدلانية أهم ثقافات العصر الحجري القديم الأعلى الأوروبية[1]. ويدل

---

[1] رالف بيلز وهاري هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص 239-240.

فن الكهوف على أغراض سحرية ولاسيما فيما يتعلق بالصيد. والإبداع الفني، على أية حال، عملية خلق؛ فها هو الفنان يرسم بعض الخطوط فوق حائط عادي، ثم انظر، ها هو بيسون قد ظهر ولم يكن له وجود من قبل والعقول التي لم تبدأ تفكر تفكيراً منطقياً بعد، لها منطقها الخاص، وهو يوحي لها أن مثل هذا العمل، لا بد وأن له مقابلاً في العالم الخارجي يمكن أن يجربه ويمكن أن يراه. ففي الأثناء التي يستطيع فيها الفنان أن يرسم بيسون في الكهف المظلم، يظهر بيسون آخر في السهول لزملائه لكي يصيدوه ويأكلوه. ولكي يتأكد الفنان من نجاحه يرسم الفنان سهماً مغروزاً في قلب البيسون (أحياناً قليلة) كما يتمنى أن يراه في الواقع.

لقد كان الفن الأورينياسي والمجدلاني إذاً عملياً في أهدافه، وكان الغرض توفير حيوان الصيد اللازم الذي تعيش عليه القبيلة. كذلك قبيلة الآرونتا وغيرها من جماعات القوت المعاصرين يقومون برقصات وطقوس مختلفة الغرض منها أن تتزايد الثمار التي يجمعونها والحيوانات التي يصطادونها.

أما التماثيل النسائية الصغيرة، فكانت لغرض سحري أيضاً، فهي تماثيل محفورة في الحجر أو العاج، وهي سمينة سمنة مفرطة، أما الوجه فقد ترك مسطحاً لا تفاصيل له. ويقال إن هذه التماثيل كان يقصد منها أن تكون تمائم للخصب. فربما - في اعتقادهم - حلت بها قوة إخصاب المرأة، ومنها يأتي الخصب للقبيلة كلها ويتوفر الطعام بازدياد النبات وخصب حيوان الصيد[1].

لقد اتضحت إبان العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى - لأول مرة - السرعة الكبيرة التي كانت تتم بها التطورات التكنولوجية المتلاحقة، وبرزت أثناء تلك الفترة بعض المواد الجديدة كالأخشاب والعظام. وظهرت الأدوات ذات المقابض والأسلحة القابلة للقذف، وكلها تمنح الإنسان مقدرة أكبر على صيد الثدييات الكبيرة الحجم. وهناك شواهد على انتشار ظاهرة أكل لحوم البشر من الصين حتى أوروبا. وكذلك على التحكم في استخدام النار، وبناء المساكن، واستخدام الملابس التي تسمح بالمعيشة في ظل ظروف مناخية باردة.

وهناك بعض الشواهد التي تدل على أن الإنسان قد مارس السحر، وطور بعض المعتقدات والطقوس الدينية. وربما وجدت كذلك بعض الإجراءات الاجتماعية

---

[1] جوردن تشايلد، تقدم الإنسانية، مرجع سابق، ص 59-60.

لتنظيم الجماعات الصغيرة، وإن كنا لا نستطيع سوى عمل تخمينات فيما يتعلق بأشكال تلك الجماعات. ولا شك أن الإنسان في هذا العصر قد وضع الخطوط العريضة للقاعدة الأساسية للحضارة الإنسانية، باستثناء أنه لم يطور، حتى ذلك الحين وسائل إنتاج الطعام، وإنما ظلّ معتمداً في غذائه على الصيد وجمع المنتجات الطبيعية[1].

الحياة الاجتماعية والاقتصادية قبل بداية الاقتصاد الزراعي

امتازت مجتمعات العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط، بأن حياتها الاجتماعية والاقتصادية قد ارتبطت ارتباطاً كاملاً بتطورات البيئة المحلية وتغيُّر المناخ وحياة الصيد وجمع الطعام التي هي من سمات المجتمعات البدائية. وحياة الظعن والارتحال لا تعتبر ميّزة ينفرد بها صيادو العصر الجليدي فحسب، بل هي صفة عامة توجد في كل مكان تحتم ظروفه الجغرافية على السكان الاحتراف بصيد البر أو البحر أو جمع الطعام. هذا ولم يظهر إلا تخصص حرفي ضئيل جداً بين صيادي العصر الحجري القديم. إذ كان لدى كل رجل وامرأة معلومات محدودة خاصة به فقط. وكان هناك تقسيم واضح للعمل بينهما. فالصيد لم يكن من اختصاص المرأة التي كانت مسؤولياتها قاصرة على إعداد الطعام وجمع النباتات البرية والجذور والفاكهة وغيرها من المحاصيل التي يمكن أن تلتقطها من الأرض، وهي حاملة طفلها على ذراعيها أو فوق ظهرها أو أثناء سيره إلى جوارها. وهكذا اضطلعت المرأة منذ العصور القديمة بمسؤولية إعداد الطعام والبقاء في المنزل، ولاسيما وأن الظروف المناخية كانت تتطلّب منها إعداد الجلود وغيرها من المواد التي تستخدم في صناعة الملابس، ولاسيما بعد أن أصبحت الحياكة إحدى المهارات الرئيسية لها إبان العصر الحجري القديم الأعلى بعد اختراع الإبرة ومعرفة استخدامها.

أما عن اختصاصات الرجال فكما يبدو من دراسة المجتمعات البدائية في أستراليا فقد اقتصرت على الصيد وصناعة الأدوات الحجرية، غير أن التخصص كان ضئيلاً للغاية بين هؤلاء الرجال، إذ لم يظهر بينهم من تخصص تخصصاً كاملاً في الصناعة لعدم توافر الطعام، ولكن لم يمنع هذا أن ظهر في هذه

---

[1] رالف بيلز وهاري هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص 248-249.

المجتمعات أناس متخصصون بعض الوقت كالساحر والمطبب مثلاً. ونظراً لضآلة الملكية الفردية فلم يكن هناك نظام حكومي أو قانون، فالأرض ملك للقبيلة أو العشيرة، لكل فرد فيها الحق في استغلال أرضها، كما أن كل فرائس الصيد التي تقتل لا بد أن يتقاسمها الجميع مع مراعاة زيادة أنصبة الفتية وكبار السن والمطببين. وهكذا لم يكن لدى الفرد أي ممتلكات شخصية سوى أدوات وأسلحة الصيد وبعض أدوات الزينة القليلة.

وكان عدد الأشخاص الذين يراهم الرجل ويتعامل معهم يقل عن الخمسين ومعظمهم من أقربائه وأنسبائه. وكان يعرف معرفة جيدة كل شخص اعتاد على رؤيته باستمرار. وكانت أنماط السلوك قد تكاملت خلال آلاف السنين فأصبحت واضحة المعالم، بيّنة التفاصيل، بحيث كان الشخص يعرف تماماً ماذا يجب أن يفعل عندما يلقى حماته في الطريق، وأية قطعة من اللحم يقدمها لوالده المسن، ليلوكها بين أسنانه النخرة المتكسرة.

وإذا صادف أن رأى شخصاً غريباً أخذ حذره، وإذا رأى من شكل تلوين الجسم أو من أية علامة فارقة أخرى، أن هذا الشخص الغريب من قوم معادٍ فإنه إما أن يقتله أو أن يتوارى عنه. ويعتمد الاختيار بين قتل الغريب أو الاختفاء عنه على محل الالتقاء. فإذا كان اللقاء في منطقة الرجل، وكان هذا الغريب يبدو منتهكاً لحرمة المنطقة، لاسيما إذا جاء صائداً لحيواناتها، فإن الجواب على تجاوزه هذا سيكون طعنة رمح تصيب منه مقتلاً. وإذا كان رجلنا هذا هو الذي يصيد في أرض الآخرين فإنه يفضل الاختفاء على البدء بالهجوم، وإذا كان هذا الغريب مصبوغاً بطريقة خاصة، كأن يدل الطلاء مثلاً على أنه يريد التجارة أو يحمل رسالة من قوم إلى قوم، فإن رجلنا هذا يخرج له، ويكون بين الشخصين حديث يجري حسب قواعد الآداب والسلوك المتعارفة. ويتم هذا الحديث بلغة الكلام فقط، أو بلغة الإشارات إذا لم تكن ثمة لغة مشتركة بينهما[1].

وكانت العلاقات مع العالم غير الإنساني متعددة ومهمة. ولما كانت الحيوانات أكثر عدداً من الناس فقد صارت موضع اهتمام الإنسان. ولقد كان الإنسان يطارد الحيوانات، يوماً بعد يوم، وما إن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى يكون قد

---

(1) Coon, op. cit., pp.134-135.

عرف عاداتها وطبائعها معرفة تامة، وأصبح يستطيع أن يشخص دباً بعينه أو ذئباً بعينه من آثارهما. وكان الاهتمام بالحيوانات يأخذ من وقت الإنسان وطاقته ما يأخذها عمل إنسان اليوم. وكان الصيد يبعده عن المخيم لأيام عديدة لا يعاشر فيها غير رجلين أو ثلاثة رجال من الصيادين، هذا إذا لم يذهب إلى الصيد منفرداً.

وكما كان عالم الحيوان يستغرق انتباه الرجل كذلك كان عالم النبات يستغرق انتباه المرأة واهتمامها. فمن النبات تؤخذ الجذور والأثمار والأعناب والأوراق الناعمة النضرة التي تكمل قائمة الطعام. ولا تزود هذه النباتات الإنسان بالمواد الغذائية الضرورية فحسب، وإنما تكون قوتاً له إذا قلت الحيوانات وشح الصيد. ومن حطب النبات توقد النار التي يطبخ عليها الطعام وتصطلي بها الأسرة. ومن النبات تؤخذ الألياف التي تصنع منها السلال والأكياس والحبال والحصر، ومن النبات تستخلص المواد ذوات الخصائص العجيبة التي تشفي الأمراض وتخفف الآلام. وكانت تلك الخصائص تعزى إلى كائنات روحية إما تسكن بذاتها في تلك النباتات، أو أنها تنجز أعمالها بها. والخشب المحروق يتحول إلى مادة من نوع آخر هو الفحم والدهان الأسود، ومن عالم المعادن يستعمل أوكسيد الحديد دهاناً أحمر، والكولين صبغاً أبيض. وكذلك كان الصوان من المواد الأساس. ولم يوجد الصوان بهيئته الطبيعية في جميع أقطار الأرض. وكان باستطاعة من يملكون الصوان أن يتاجروا به أو يسمحوا لأبناء القبائل الأخرى بالدخول إلى منطقتهم لتعدينه ونقله معهم. وكان هذا الضرب من الكرم يفيد الناس جميعاً. وذلك أنه كان يمكّن أعضاء جماعات عديدة من لقاء بعضهم بعضاً فيتبادلون الآراء والتجارب كما يتبادلون السلع مثل أوكسيد الحديد، أو أنواع خاصة من الخشب. وبمثل هذه الاتصالات والملاقاة فقط صار انتشار الأساليب الجديدة في صناعة الصوان وأعمامها ممكناً.

وثمة أوقات في كل سنة يكون فيها الطعام أوفر منه في الأوقات الأخرى. وفي أوقات وفرة الرزق هذه يستطيع عدد كبير من الأشخاص أن يعيشوا على خيرات بضعة أميال مربعة من الأرض. وفي تلك الأوقات كان الناس يجتمعون ويلقى بعضهم بعضاً. كان يجتمع في مكان واحد مئتا شخص أو ثلاثمئة شخص، ينتمون إلى جماعتين أو بضع جماعات مختلفة. ولا بد أن يكون لكل اجتماع يحضره أشخاص عديدون منهاج ينظم أعمالهم وإلا أصبح الاجتماع فوضى. وكانت المناهج لمثل تلك

الاجتماعات التقليدية قد أسبغ عليها تقادم الزمن الوقار والقدسية. وفي هذه الاجتماعات ينصرف الشيوخ إلى المحادثات الرسمية، ويقوم الشبان بالمصارعة. وينهض أحياناً أشخاص معيّنون فيرقصون أو يمثلون أدواراً قصيرة يحاكون بها سلوك بعض الحيوانات، أو هيئة الصيادين وهم يطاردون فرائسهم أو يتسللون إلى مخابئها ليقتنصوها، أو يمثلون الأعمال المشهورة التي قام بها الأجداد الأولون. وفي الليالي تتوهج النار فتسطع أشعتها وجوه مصبوغة وأجسام مطلية بالدهان. وتتابع الرقصات التقليدية الرسمية. ويتسلل الرجال والنساء إلى الأكمة القريبة، وهناك تزول القواعد الجنسية المعتادة ولا يبقى منها إلا القواعد التي تحرم الاتصال الجنسي بين الأم وابنها وبين الوالد وابنته، وبين الأخ وأخته.

وتتألف الجماعة نفسها من عدد صغير من الأسر المستقلة تتكون كل منها من الأب والأم والأولاد. وفي الأسرة عادة، جيلان من الناس، وفي بعض الأحيان ثلاثة أجيال. ولكن في تلك الأزمان السحيقة لم يكن ليبقى إلا القليل من الأفراد الذين تجاوزوا مرحلة الشباب. ولم يكن الجيل مهماً بحد ذاته. فقد يكون لرجل في الأربعين من عمره أخ في العشرين. وقد تكون للمرأة بنت وأخت في عمر واحد أما العمر فكان عظيم الأهمية لأن الأشخاص من عمر واحد وجنس واحد كانوا يقومون بأعمال واحدة يؤدونها مجتمعين.

كانت كل جماعة يوحّدها العمر تتميّز برموز خاصة تتمثل في طرز الملابس، وطريقة استعمال دهان الجسم، وفي السلوك نفسه. وكانت قائمة الرموز التي يستعملها أبناء جماعة واحدة تامة شاملة، فهذه الرموز تمثل جميع العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الناس، وبين الناس والعالم غير الإنساني، أو العالم العلوي. وأول هذه الرموز هو شكل اللغة وتكوينها. ولا نعرف ما هي اللغات التي كان يتكلمها الصيادون في عصر البليستوسين المتأخر، ولكننا على يقين من أنها كانت كثيرة. وللصيادين البسطاء الذين يعيشون اليوم عدد من اللغات بقدر عدد الجماعات التي تتوافد على الاجتماعات الاحتفالية في المواسم الفنية. ويحق لنا أن نطمئن أيضاً إلى أن تلك اللغات كانت وافية بأغراض الجماعة التي تتكلمها. فقد كان لكل حيوان يصاد عدة أسماء تعيّن جنسه وعمره وحالته. وعندما يكون الثلج ذا أهمية بالنسبة للجماعة فلا بد أن تظهر في لغتها اثنتا عشرة كلمة أو أكثر تشير إلى مختلف

obeikandl.com

حالاته. أما جدول الأعداد فكان يتدرج من الواحد إلى الستة ويرقى منها إلى الكثير أي غير المتناهي.

وثمة رموز أخرى تعبِّر عن العلاقة القائمة بين الإنسان والطبيعة، ولكل مجموعة من الحيوانات أو الأعشاب النافعة روح خاصة بها. وهذه الروح تظهر للإنسان من حين إلى حين فتبلغهم رسالات مهمة. وتفرض القوانين المتعلقة بالصيد وبحفظ الحيوانات على جميع أفراد الجماعة فرضاً شديداً بنظام يعيّن المحرمات ويقوم على الدين والأعراف والتقاليد. ويحمي نظام التحريم هذا، تلقائياً، أنواعاً مهمة من الحيوانات في فصول معيّنة من السنة لخوف الناس من انتقام الأرواح المعنيّة التي تمثلها هذه الحيوانات. وقد يقوم الصيادون باسترحام هذه الأرواح ليتوفقوا في الصيد وذلك بتمثيلهم حادثة وردت في الأساطير عن خلق نوع من الحيوانات. ويجب، فوق كل شيء ألا يضطرب هذا التوازن القائم في الطبيعة، والذي يشارك فيه الإنسان نفسه. وتؤكد الاحتفالات رمزياً على أن قتل الإنسان وعلاً إنما هو جزء من المسلك السليم الذي تسلكه الحوادث الطبيعية في المحيط الذي يعيش فيه[1].

ولا يقتصر عالم الصياد على البقاع المترامية الأطراف التي يطارد فيها حيوانات الصيد، ولا على أبناء عشيرته وأصدقائه وأعدائه في المناطق المجاورة، ولا على الحيوانات والنباتات التي تؤلف قوام حياته، ولا على أرواح هذه الحيوانات والنباتات فحسب، وإنما يجب أن يضم هذا العالم أيضاً أرواح أسلافه الذين وإن كانوا أمواتاً فهم ما يزالون أحياءً. إن طول المدة التي تتمتع فيها روح الرجل الميت بالبقاء يعتمد على مقدار أهميته عند الناس الأحياء. وإذا كان هذا الرجل صياداً ماهراً في ريعان شبابه، أو زعيماً لعصبة من الناس، أو كان الرجل الذي يقسم اللحم بينهم ويحكم في خصوماتهم ويعلّم صبيانهم، أو كان زوجاً صالحاً، فإن موته يدخل الاضطراب على حياة العصبة، ويجعل معظم أفرادها يتذكرون طيفه في معظم الأحيان. وبإمكان هؤلاء أن يصلّوا له، ويدعوه ويسألوه أن يحل لهم القضايا التي اعتاد أن يحكم فيها أثناء حياته بينهم.

وأما إذا كان الرجل صياداً فاشلاً، وزوجاً سيئ العشرة، وشخصاً مشاغباً شديد الخصام، فإن روحه تكون معتمة، وقبل أن تمضي على موته سنوات قلائل

---

(1) Coon, op. cit., pp.136-138.

ينساه الناس، وتتوارى روحه في غياهب العدم. وبعد مضي سنوات عديدة، وبعد وفاة جميع الأشخاص الذين رأوا بأعينهم الرجل العظيم الذي كبرت روحه وضخمت بعد وفاته، تندمج مآثره وأعماله العظيمة بمآثر أبطال الماضي الذين يفوقونه عظمة وبطولة. وقد يتغلّب اسم هذا الرجل على أسماء الأبطال الماضين فيعفي عليها. وبمرور الزمن يصبح عالم الغيب مليئاً بطبقة ثابتة من الأرواح. وهذه الأرواح تمثل الرجال والنساء الذين خلقوا الأصقاع الواسعة ورفعوا هذا التل، وخفضوا ذلك الوادي، وأجروا ذلك النهر. وترمز بعض هذه الأرواح إلى موطن الاضطراب بين الرجال والنساء، وبين الشبان والشيوخ، وبين البشر والطبيعة. ورأس عوامل الاضطراب، بطبيعة الحال، هو الجو. فقد تكون العواصف مسببة عن غضب روح عظيمة كَدَّرَها، سهواً، بعض الناس الذين ارتكبوا أعمالاً عكّرت العلاقات بين أفراد الجماعة[1].

وقد كانت الأسرة في أواخر العصر الجليدي، كما نتصورها نحن، زمرة متواشجة القرابة كما هي الحال في معظم الأسر دائماً. وكانت تلك الأسر تضم جيلين من الناس وأحياناً ثلاثة أجيال من الناس. ولكنها لم تكن لتضم أجيالاً أخرى إلا في القليل النادر. وكانت الأسرة بحد ذاتها مؤسسة اقتصادية، فقد كانت تنتج طعامها ولباسها وأدواتها ومساكنها. وكانت العصبة أو العشيرة دولة يقودها شكلياً صياد ممتاز قد يكون أيضاً ثاقب الرأي صائب الحكم وإن كان الشيوخ جملة هم الذين يتخذون القرارات ويبتون في الأحكام. وكان الشيوخ يقومون مقام المحكمة، فإذا أحدث أحد الرجال حدثاً، أو قام بعمل مقلق يؤثر في السير الطبيعي للعلاقات الاجتماعية، اجتمع الشيوخ ونظروا في أمر التخلص منه. وكانت الدولة (العشيرة) تشرف على الأعمال الاقتصادية أيضاً. وكان أمهر صياد في العصبة، أو أكبر الرجال سناً فيها، يقوم بمهمة توزيع اللحم على الأسر، ليدفع غائلة الجوع عن كل فرد فيها[2].

أما عن الخبرات التي اكتسبها الإنسان عن طريق حرفة الصيد والجمع والالتقاط فهي معرفة كيف يتعاون مع أخيه الإنسان. لأن عملية صيد حيوان ضخم

---

(1) Coon, op. cit., p.140.
(2) Ibid, pp.142-143.

مفترس لا يستطيع أن يقوم بها بمفرده، ولذلك كان لا بد من وجود أحد النظم الاجتماعية الأرقى من تكوين أسر صغيرة. ذلك بالإضافة إلى أن جميع الأنواع المختلفة من الثمار حتمت على الإنسان أن يكتشف الفصول الأربعة وتعاقبها، وأن يحصل على قدر لا بأس به من المعرفة الخاصة بالنباتات المحلية وأنواع الحيوان وطباعها.

ولقد أدّى التطور العقلي أو الفكري للإنسان أثناء العصر الحجري القديم والحجري الوسيط إلى ظهور اللغة والفن والدين، وكثير من المهارات الفنية فاللغة كانت أداة مهمة لنقل التراث الحضاري إذ لها دلالة إنسانية لا تقل بأي حال من الأحوال عن قدرة الإنسان لصنع أدواته.

ولعل من أبرز المخترعات التي ساعدت على تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية أثناء العصر الحجري القديم والوسيط ما يأتي:

1- بناء المساكن.
2- استئناس الكلب.
3- معرفة النار وطهي الطعام.
4- نصب الفخاخ وصناعة الشباك.
5- القوارب واستخدامها كوسائل للنقل.
6- اختراع المصابيح والأواني الحجرية.
7- استخدام الملابس.

أولاً- بناء المساكن:

من المعروف أن تشييد المنازل وبناء الأكواخ كان إلى جانب استخدام الملابس من العوامل التي ساعدت الإنسان على أن يعمّر ويزدهر في كل ربوع المعمورة، ابتداءً من المناطق الاستوائية الشديدة الحرارة الغزيرة الأمطار إلى المناطق القطبية ذات المناخ الشديد البرودة. ويختلف الإنسان عن الحيوانات والطيور في أنه تمكن من أن يلائم مسكنه لكل أنواع البيئات المحيطة به، ولكل الظروف الحرارية، ولأنواع المواد الخام المتعددة، ولاحتياجاته المختلفة التي يدخل في تقديرها الذوق والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، وحتى في المراحل الأولى من التطور تمكّن الإنسان

من أن يستخدم في المناطق المدارية أوراق الشجر والأخشاب وجلود الحيوانات في بناء مساكنه على حين لجأ في المناطق القطبية إلى استخدام الأحجار وعظام الماموث والأسماك الكبيرة وحشائش التندرا والجليد وغيرها من المواد المحلية المتوافرة في بيئته لتشييد مأوى له.

وقد تمكن الإنسان أيضاً من أن يقيم مراكز للاستقرار في مناطق الأدغال، وعلى سفوح المنحدرات، وفي الإستبس، وعلى مجاري الأنهار، وبالقرب من شواطئ البحر، وفي المستنقعات وفي كل مكان سواء فوق اليابس أو البحر وليس هذا فحسب، بل تمكن أيضاً من بناء مساكن مختلفة الحجم قد تتسع لأسرة صغيرة أو لعدد كبير من الأسر. وقد بنيت المنازل متفرقة ولكن نادراً ما كانت متكتلة، إذ إن النوع الأخير من التجمع لم يظهر أبداً في مرحلة الصيد وجمع الطعام، لأن ظهور القرى الكبيرة ارتبط بظهور القرى الحقيقية والاستقرار والارتباط بالأرض.

وفي العصر الحجري القديم لم يلجأ الإنسان إلى بناء المساكن فقط، بل استخدم أيضاً الكهوف الطبيعية والحافات المرتفعة كملجأ يأوي إليه، ولكن من الخطأ أن نتصور أن هذه الكهوف وتلك الصخور المحمية كانت هي الأشكال الأولية للمساكن البشرية، إذ إن الإنسان الأول حين ظهر في إفريقيا لم يكن بحاجة للعيش تحت سقف وأربعة جدران متينة، بل فضل العيش في العراء.

وإذا كان الإنسان الجنوبي البليستوسيني قد سكن حقيقة الشقوق الصخرية حيث وجدت بقاياه هناك، إلا أنه لا توجد أدلة تشير إلى أن أسلافه في عصر البليوسين قد سبقوه في هذا. وفي الواقع ليس هناك دليل مؤكد يشير إلى أن الإفريقيين استعملوا الكهوف كمساكن قبل أواخر الحضارة الأشيلية، فقد لوحظ أن حضارة الدوفاي قد وجدت بقاياها في حالات توحي بأن أصحابها قد عاشوا في العراء ولم يلجؤوا إلى الأكواخ، كما لا يوجد دليل أيضاً على أن الإفريقيين استعملوا النار قبل هذه الفترة، غير أنه يحتمل أن الإنسان استغل الكهوف بصفة وقتية، وأنه استخدم النار في هذه الفترة كسلاح يحمي به نفسه من الحيوانات المفترسة.

ومن المعروف لدى الباحثين أن كهوف تشوكوتين في الصين كانت هي أولى المساكن البشرية، وأن البرد القارس هو الذي دفع الإنسان لسكنى الكهوف. ففي

بادئ الأمر عشق الإنسان العيش بحرية في الهواء الطلق، ولجأ أولاً لإقامة مصدات للرياح أو مظلات لتحميه من الأحوال الجوية، ثم لجأ في فترة متأخرة لبناء المساكن. وقد سكن الكهوف بصفة مستمرة منذ أواخر العصر الحجري القديم وحتى نهاية العصر الحجري الوسيط حيث استغل هذا المأوى الطبيعي. فقد سكن إنسان جاوة وبكين كهوف تشوكوتين في أثناء الفترة الجليدية الثانية، بينما كانت الكهوف التي عثر عليها في وادي ميكوبان بالترانسفال، ومقاطعة الكاب في جنوب إفريقيا، وجبل الكرمل في فلسطين مأوى لأصحاب الحضارة الأشيلية المتأخرة وذلك مع نهاية الفترة غير الجليدية الثانية. هذا وقد عثر على الكثير من الكهوف التي عاش فيها الإنسان في الفترات التي أعقبت الحضارة الأشيلية، ولعل من أبرزها تلك التي كان يأوي إليها إنسان نياندرتال في أوروبا. وعلى الرغم من تركز معظم هذه الكهوف في جنوب غرب أوروبا، إلا أنه عثر أيضاً في إفريقيا، وعلى ساحل البحر المتوسط على كهوف طويلة، ككهف بامباتا Bambata بزيمبابوي، ترجع بتاريخها إلى أواخر العصر الحجري القديم. كذلك كهوف أخرى مشابهة للكهوف السابقة في آسيا، على حين وجدت معظم المحلات التي عثر عليها في العالم الجديد وتنتمي للفترة السابقة لمعرفة الزراعة دائماً في العراء رغم أن أولى الحضارات التي عرفت بالمكسيك قد سميت نسبة إلى أحد الكهوف المكسيكية المعروف باسم ساندِيا Sandia. وتدل الدراسات الأركيولوجية أن سكان الكهوف في عصر ما قبل التاريخ كانوا يقضون جل وقتهم في الداخل إلى جوار باب الكهف. وذلك ليتمكنوا من الجمع بين ضوء النهار والهروب من الدخان المتصاعد من النيران المشتعلة في وسط الكهف والتي كانت جزءاً أساسياً منه. ولم يلجأ إنسان العصر الحجري القديم إلى أغوار الكهوف إلا حينما كان يرغب في ممارسة بعض الشعائر السحرية المتصلة بحياته أو للنقش على جدران الكهف.

أما بالنسبة لاختيار الكهوف في المناطق الباردة فنلاحظ أن إنسان العصر الحجري القديم كان يفضل دائماً الكهوف التي تواجه الجنوب أو الشرق، وذلك لكي يتمتع بالجلوس على المصطبة أمام الكهف، وقد لجأ سكان عصر ما قبل التاريخ إلى دفن موتاهم بصفة دائمة إلى جانب هذه المصاطب خارج الكهف[1].

---

[1] د. يسري الجوهري ود. محمد السيد غلاب: الجغرافيا التاريخية، ص 236-238.

obeikandi.com

أما عن "المظلات الصخرية" Rock Shelter فكانت مثل الكهوف أماكن مرغوبة للاستقرار فيها أثناء العصر الحجري القديم، إذ كانت عبارة عن صخرة معلقة كبيرة أشبه بسقف طبيعي رفع من دون دعائم. ولعل من خير الأمثلة للكهوف والمظلات الصخرية التي لجأ إليها إنسان ما قبل التاريخ تلك التي توجد في إقليم الدوردون Dordogne في جنوب غرب فرنسا. ففي الأودية الجيرية العديدة الموجودة هناك حيث تشتد التعرية النهرية وتكثر الصخور المعلقة يوجد عدد من الكهوف والمظلات الصخرية التي تقترب بعضها من بعض كثيراً، وتحتوي على كثير من مخلفات صيادي العصر الحجري القديم. ففي هذه المنطقة يمكن أن نتصور كيف كانت تلتف مجموعات كبيرة من السكان حول النيران التي تلتهم الصيد الجماعي الذي ظفروا به طوال يومهم، وكيف كان الطعام أو القدور تحمل إلى المطببين والفنانين والقادة في داخل الكهوف، وكيف كانت النيران المشتعلة أمام الكهوف في ليالي الشتاء القارس تكون عقوداً مضيئة على طول المرتفعات الجيرية.

هذا وقد تعود سكان الكهوف أن يلقوا في داخل الكهف بمخلفاتهم وبقاياهم التي أخذت تتراكم إلى أن بلغ ارتفاعها عدة أمتار، بل في بعض الأحيان ملأت الكهف وجعلت السكنى فيه مستحيلة.

ولعل أول المباني التي شيدها الإنسان هي تلك التي عثر عليها في جنوب روسيا وسيبيريا وتشيكوسلوفاكيا ويرجع تاريخها إلى العصر الحجري القديم الأعلى. ويبدو أن هذه المباني كانت ملجأ لأصحاب الحضارة الجرافيتية صيادي الماموث الذين اضطروا للعيش في العراء في فصول الشتاء بسبب تخصصهم في الصيد، ومن أمثلة هذه المباني مجموعة مكونة من ثلاثة أكواخ(*) وجدت بالقرب من منابع ماء صغيرة على منحدرات تلال بافلوث Pavlos بتشيكوسلوفاكيا. ولم يعثر في هذه الأكواخ على بقايا لسقوفها، إذ يبدو أنه استخدم بدلاً منها مظلات أو مصدات للرياح. وربما كانت هذه الأكواخ منزلاً لأسرة من الصيادين أو لمجموعة منهم.

وأقدم الأكواخ الثلاثة كان على شكل دائرة قطرها نحو ستة أمتار وسقفه

(*) أحد هذه الأكواخ بيضوي الشكل بلغ طوله 15 متراً وعرضه قرابة تسعة أمتار مرصوف بالحجر الجيري، وفي وسطه حوالي خمسة مواقد وبجوار الحائط حجر للتخزين.

مصنوع من أغصان الأشجار أو الحشائش، وجدرانه بنيت من الطين والحجر الجيري، ويعتبر هذا الكوخ أقدم بناء حقيقي شيده الإنسان.

ومن مواقع صيادي الماموث أيضاً بتشيكوسلوفاكيا موقع أوسترافا-بتروفيس Ostrava-Petrkovice على الضفة اليسرى لنهر أودر. ولعل أبرز ما يميِّز المحلة التي وجدت هنا أنها مكونة من ثلاثة أكواخ بيضوية الشكل. وهناك مجموعة من الأكواخ المستطيلة التي وجدت بالقرب من بريانسك Bryansk قرب نهر ديسنا Desna. وتتميّز هذه الأكواخ بأن أرضيتها غاطسة تحت سطح الأرض بنحو ثلاثة أمتار، ويصلون إليها عن طريق منحدر في نهاية الكوخ أو في وسطه. وقد بطنت جوانب الأكواخ بأخشاب كما وضعت الأسقف من كتل خشبية وُضِعَت فوقها الأتربة وفضلات المطبخ، وقد وضع أكثر من موقد عند مدخل الكوخ، وأمكن التغلب على مشكلة الدخان بعمل مداخن من الطين، كما أضيئت هذه الأكواخ بمصابيح حجرية. هذا ولا بد أن هذه الأكواخ كانت ملجأ للصيادين في فصل الشتاء وفي أثناء هبوب الرياح القطبية الباردة.

وهناك نوع ثان من الأكواخ يشبه في تشييده بناء الخيمة، يمثله كوخ Geogarine بالقرب من نهر الدون. ويمتاز هذا الكوخ بالشكل البيضوي، وقد استخدمت الجلود في تبطين الدعائم التي قام عليها، وهي في ذلك تشبه خيام الأسكيمو الصيفية بكندا، إذ استخدمت عظام الماموث في ربط الجلود بعضها ببعض.

أما بالنسبة لمساكن العصر الحجري الوسيط فنجد أن الأكواخ التي ظهرت في هذه الفترة في أوروبا كانت أقل جودة وأصغر حجماً من تلك التي صاحبت العصر الحجري القديم الأعلى. وذلك نتيجة للظروف الجغرافية التي سادت في هذه الفترة. ففي العصر الحجري الوسيط زادت كثافة ومساحة الغطاء النباتي، ثم أصبحت مواد البناء متوافرة، غير أن المناخ الدافئ في هذه الفترة لم يتطلّب حفر منازل أرضية كما حدث في الفترة السابقة.

وقد لجأ أصحاب حضارة العصر الحجري الوسيط بصفة عامة لتشييد مساكنهم فوق المناطق الرملية والحصوية، حيث يكون الغطاء النباتي هناك بسيطاً، ولكن هذا لم يمنع من تشييد المساكن فوق الأراضي المستنقعية. فسكنت

بعض الجماعات الماجلموزية وسط المستنقعات بالقرب من لوبيك Lübeck، كما عاشت جماعات أخرى صائدة الأسماك والغزال وسط المستنقعات في ستاركار Star Carr بمقاطعة يوركشير بإنجلترا ومعظم الظن أنهم عاشوا هناك في خيام. هذا على النقيض من الأدلة المستقاة من الدنمارك والتي تشير إلى وجود الأكواخ في مناطق المستنقعات. وقد صنعت هذه الأكواخ من أعمدة مستقيمة وضعت على شكل دائرة والتقت جميعاً في الوسط. وعلى أي حال فكل الدلائل تشير إلى أن البناء الحقيقي للمنزل في أوروبا أو أي مكان آخر في العالم لم يوجد إلا في العصر الحجري الحديث[1].

ثانياً- استئناس الكلب:

إن استئناس الكلب في حد ذاته ليست له أهمية، ولكن أهميته في أنه خطوة تقدمية نحو المرحلة القادمة، وهي استقرار الإنسان في قرى وممارسة الزراعة واستئناس أنواع أخرى من الحيوانات.

إن الصداقة التي نشأت بين الإنسان والحيوان إلى جانب عاطفة الأمومة لدى النساء ربما كانت من العوامل التي ساعدت على استئناس الكلب، ولكن ربما كانت الخطوة الكبرى نحو استئناس أول حيوان هي من جانب الكلب وليس من جانب الإنسان. ويسهل إدراك ذلك إذا ما عرفنا أن بعض أنواع الكلاب البرية الصغيرة القليلة الخطر كانت تتردد على معسكرات إنسان العصر الحجري القديم لتلتقط بعض العظام والبقايا، وأنها أظهرت في طبيعتها شيئاً من التسامح واللين نظراً لأنها أصبحت تعيش عالة على الإنسان، وبالتدريج تطورت العلاقة بين الإنسان والكلب وبدأ الأول يقدم إليه وجبة خاصة، ثم تحول الكلب إلى حيوان أليف إلى أن وصل إلى مرحلة الاستئناس الكامل، فاستخدم في الحراسة وأصبح صديقاً للإنسان. وتبعاً لهذه النظرية استخدم الكلب في أغراض منزلية قبل أن يتدرب على حياة الصيد ورعي الماشية التي لم تأت بطبيعة الحال إلا مع تقدم الحياة الزراعية. هذا التتابع في مراحل استئناس الكلب تبدو صحيحة إذا ما أمكن البرهنة على أن الأنواع البرية الأولى للكلاب التي روضت كانت صغيرة الحجم.

---

(1) المرجع السابق، ص 241-242.

هذا وقد وجدت الكلاب المستأنسة في أماكن مختلفة وفي مواقع عديدة من العصر الحجري الوسيط، ومن بينها مواقع الحضارة التردنوازية في بريتاني والماجلموزية في الدنمارك والنطوفية في فلسطين[1].

ثالثاً- استخدام النار وطهو الطعام:

لا يمكن أن نكون منصفين حيال منجزات الإنسان في العصر الحجري القديم دون الرجوع في نهاية الأمر إلى الاكتشاف الرئيسي الذي أمن له بقاءه ألا وهو استعمال وإدامة النار.

والدليل على استخدام الإنسان المبكر للنار، دليل قاطع، لأن فحم الخشب صلب ولا يفنى لأنه كربون نقي، فإذا ما دفن ظل كما هو مهما مرَّ عليه من زمن. عثر على آثار استخدام النار في كهف «تشوكوتين» في الصين، حيث عاش إنسان الصين Sinanthropus ، وكذلك في كهوف جنوب إفريقيا من زمن الأوسترالوبيتك وهو أقدم من إنسان الصين.

تعرَّف الإنسان على نار البراكين وحرائق الغابات، وكان باستطاعة الإنسان أن يلتقط خشبة مشتعلة ويحملها معه، وكان بإمكانه أن يحافظ على هذه النار مدة غير محدودة من الزمن بأن يعتني بها ويغذيها بأوراق الشجر والأخشاب وينفخ عليها عندما تأخذ في الخمود، واستطاعت الأسرة الواحدة أن تقبس النار من أسرة أخرى، وكانت النار تنتشر بهذه الطريقة من محلة إلى محلة، بل من قارة إلى قارة. وإذا انطفأت نار إحدى المخيمات فبإمكان الناس أن يحصلوا عليها إذا استطاعوا الوصول إلى مخيم آخر. وتدل الحفريات أن أجداد الجنس البشري الحالي استطاعوا استخدام النار منذ 500.000 سنة. أما صنع الإنسان للنار، فإن أقدم دليل مادي وجد في كهف كرابينا بيوغسلافيا ويرجع إلى نحو 100.000 سنة عند إنسان نياندرتال[2].

لم يكن الإنسان قبل اكتشاف النار سوى حيوان يستخدم الأدوات بدلاً من اعتماده على المخالب والأنياب، ولكن عندما صنع الإنسان النار استطاع أن يخطو

---

[1] المرجع السابق، ص 243.

[2] Coon, op. cit., pp. 88-89.

إلى الأمام في مجال التكيف مع البيئة، وفي اختراع الكثير من الفنون الجديدة. استخدم الإنسان النار في الإضاءة وفي تخويف الحيوانات المفترسة التي كانت تدهمه ليلاً، وأصبح في إمكانه أن يبقى دافئاً ليس فقط أثناء مقامه في المخيم أو الكهف، وإنما أثناء تنقله وراء الحيوانات أيضاً. ومكّنت النار الإنسان من أن يمد مناطق سكناه إلى الشمال قليلاً، وساعد اكتشاف النار على التماسك الاجتماعي، فعندما تغيب الشمس وتتراكم العتمة لا شيء خير من النار لتبديد الخوف والقلق، وحول النار يرقص الرجال والنساء وتحلو ليالي السمر. وفيها يعيدون تمثيل رحلات الصيد ويضعون الخطط لرحلات قادمة. وبالإضافة إلى وظيفة الحماية والتدفئة والتماسك الاجتماعي توجد وظيفة رابعة للنار هي الطبخ. ولا نعرف متى بدأ الإنسان يطبخ طعامه، ولكن توجد أدلة على أن الإنسان العاقل استخدمها في الطبخ. وعندما يُشوى الحيوان على النار وتكون العظام حارة فبالإمكان أن يمتص الإنسان النخاع المائع دون أن يحتاج إلى تكسير العظام. وفي المواقع التي نعرف عبرها أن الناس كانوا يطبخون فيها اللحوم وجدت العظام مفلوقة نصفين، ولكن تاريخ هذه المواقع متأخر، وهي لا تحدثنا بأي شيء عن بدء ممارسة الإنسان للطبخ. والطبخ يقدم للطعام فوائد أخرى غير إطلاق النخاع، إنه يلين الألياف القاسية في اللحم وجذور النباتات ويطلق الحوامض الأمينية والسكر، وهو يتيح للناس طعاماً ليناً سائغاً سهل المضغ كما يقصّر مدة الأكل إلى حد كبير. وقد يكون اكتشاف الإنسان للطبخ العامل الحاسم الذي قاده إلى الانتقال من وجود مادي في أساسه يشبه وجود الحيوان إلى وجود إنساني كامل. ولعل عدم معرفة الناس الأولى بالطبخ قد جعلهم ينفقون معظم ساعات يومهم على الطعام بحيث لم يبق لديهم كثير من الوقت للتقدم الحضاري، ولعل ذلك كان العامل الذي جعل الأدوات المصنوعة من الصوان تجمد على أنماط واحدة طوال مئات آلاف السنين[1].

هذا وقد وجدت طريقتان لإشعال النار أولها عن طريق الطرق والثانية بواسطة احتكاك قطعتين من الأخشاب، حيث ينتج عن هذا الاحتكاك رماد خشبي رقيق له القدرة على إشعال أي شيء يقترب منه. والطريقة الأولى هي التي ساد استخدامها في العصر الحجري القديم والوسيط، إذ تمكن بعض سكان الكهوف من قدح

---

[1] Coon, op. cit., p.114.

النار بواسطة طرق قطعة من الصوان مع كتلة من حجر الدم. أما الطريقة الثانية لصناعة النار فاشتملت على ثلاثة أنواع هي:

1- حرث النار Fire plough وفيها تستخدم قطعة خشب صلبة في حك قطعة أخرى طويلة من الخشب.

2- نشر النار Fire sow وهي طريقة مشابهة للطريقة الأولى حيث يمرر أو يحك الطرف الحاد لعصا كالخيزران عبر مجرى ضيق.

3- تولي النار Fire drill وفيها تحرك عصي ذات طرف مدبب حاد حركة دائرية في ثقب.

ويبدو أن طريقة أو أكثر من الطرائق السابقة قد استخدمت قبل نهاية العصر الحجري الوسيط، غير أن اختراع النار قد ظهر مستقلاً في أقاليم مختلفة، كما أن هناك اختلافاً في الطرائق تبعاً لطبيعة الأخشاب المتوافرة، واختلاف نوع الوقود. ففي المناطق الغابية مثلاً كانت الأخشاب متوافرة، لذلك استخدمت في إشعال النار، على حين عوَّض سكان التندرا وصيادو الماموث فقر بيئتهم في الأخشاب باستخدام عظام الماموث كوقود. أما الفحم فعرف لأول مرة في التاريخ في بتروفيس بتشيكوسلوفاكيا، بينما المصابيح الحجرية Stone Lamp التي أضيئت بواسطة الشحوم استخدمت كما يفعل الأسكيمو الآن في إنارة وتدفئة المنازل الأرضية.

ويبدو أن استئناس النار قد أثر في التكوين الطبيعي للإنسان، كما أثر أيضاً في حضارته، إذ تمكن بواسطة النار من طهو طعامه الذي أصبح بدوره مادة سهلة الهضم والتناول بعد أن كان يأكل اللحوم النيئة والخضراوات غير المطهية، ثم كان لهذا التحول أثره في عضلات الجسم ونظام الهضم وقيمة المادة الغذائية. ولهذا فإننا نعتبر معرفة النار من أهم الأحداث التي مرَّ بها الإنسان في تطوره.

أنواع الطعام في العصر الحجري القديم:

كان الحصول على الطعام المهمة الرئيسية للإنسان الأول ولذلك وجدت أنواع مختلفة من الأطعمة. ففي ظل التطورات المناخية في عصر البليستوسين وعلى اليابس الممتد من المناطق الاستوائية إلى المناطق القطبية قدَّمت المملكتان النباتية والحيوانية مجالاً كبيراً للطعام، في الوقت نفسه الذي كان فيه الإنسان كغيره من الحيوانات يتناول ويأكل كل شيء غير عابئ بالصالح منه والطالح منه عند الضرورة. ولكن

ربما كانت الفاكهة والجذور والحشرات هي أكثر أنواع الأطعمة تفضيلاً في أثناء المناخ الدافئ، بينما ساهمت اللحوم بنصيب كبير في غذاء صيادي أوروبا أثناء الفترة الجليدية الأخيرة.

ففي خانق الدوفاي، حيث عثر على الإنسان الأول، وجدت عظام كثيرة من الحيوانات التي اصطادها الإنسان وأكلها، والتي من بينها عظام بعض الفئران والطيور والسحالي وصغار الماشية والأغنام والخنازير والزرافات. وقد أكل الإنسان القرد المنتصب القامة إلى جانب ذلك الوعل الذي كان أيضاً غذاءً شهياً للأشيليين في جبل الكرمل، على حين كان لدى الصينيين في وادي "هوانغ هو" كميات من بيض النعام.

وقد تنوعت الأطعمة في العصر الحجري القديم الأعلى وتمتع صيادو أوروبا بوفرة ملحوظة منه، إذ وجدت كميات كبيرة من قطعان الماشية البرية والحصان والخنازير والبيسون والوعل الأحمر في أثناء الفترات الدافئة، بينما عاش الماموث والوعل أثناء الفترات الباردة حينما عادت ظروف التندرا. وبالإضافة إلى اللحوم فقد أكل إنسان العصر الحجري القديم الأعلى الأسماك والطيور كأسماك السلمون والإوز القطبي[1].

رابعاً- نصب الفخاخ وصناعة الشباك:

تمكن الإنسان منذ بداية تاريخه على سطح المعمورة أن يقتنص حيوانات أسرع وأقوى منه. وذلك عن طريق استخدام ذكائه ونصب الفخاخ. وإذا كان غير معروف بالضبط متى بدأ يمارس ذلك إلا أن مطاردة قطعان الحيوان نحو الحافات المنحدرة أو المناطق الخطرة كالحفر مثلاً كانت مرحلة لنصب الفخاخ. وربما كانت تغطية الحفر بأغصان الأشجار ووضع عصي عمودية في قيعانها كانت من أول المصائد التي استخدمت لقتل الفيلة والحيوانات كبيرة الحجم.

وأول دليل يشير إلى وجود المصائد يظهر في النقوش المجدلينية في كهف فونت دي جوم Font-de-Gaume بالدوردون. وأقدم المصائد هي مصائد الأسماك في

---

(1) د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري، الجغرافيا التاريخية، ص 245-246.

الدنمارك التي يرجع تاريخها إلى العصر الحجري القديم الأعلى، والتي تشبه المصائد المستخدمة في أوروبا في الوقت الحاضر.

وقد عُرفت المصائد أيضاً في ذلك الوقت كما توضحها نقوش المقابر في المملكة المصرية القديمة، وكانت عبارة عن سلة مخروطية الشكل أو أسطوانية قاعها مغلق وفي وسطه فتحة تسمح بدخول السمك إلى السلة ولكن في الوقت نفسه تحول دون خروجها. وهذه المصائد تشبه في فكرتها المصائد الدنماركية المعروفة باسم: labsler po التي بلغ طولها أربعة أمتار وقطرها قرابة المتر، وصنعت من عصي جمعت مع بعضها بواسطة عصبة متقاطعة من الفروع المشقوقة للأشجار. وهذه المصائد لا بد أنها كانت توضع في القنوات الضيقة. ولعل صناعة الشباك كانت هي الثورة الحقيقية في صيد الأسماك، ومن الطبيعي أن يُعرف الخيط والدوبار قبل أن تُعرف الشباك، وأن صيادي العصر الحجري القديم الأعلى هم الذين خطوا هذه الخطوة المهمة نحو صناعة الشباك. إذ من المحتمل أن المرأة الجامعة للعسل كانت تستخدم سلماً من الحبال للوصول إلى غرضها، ومن الممكن أن هذا الحبل استخدم في صناعة الشباك، هذا وقد وجدت عدة حبال استخدمت في صنع الشباك في صوامع مختلفة على الشاطئ الشرقي للبحر البلطي[1] ويرجع تاريخ معظمها إلى فترة الانتقال بين بحيرة أنكيلوس وليتوريا، وكانت تستخدم هذه الحبال في صناعة شباك طويلة توضع أفقية في الماء بواسطة أطراف وثقالات، وكانت تستخدم عادةً في صيد الأسماك الصغيرة السابحة بالقرب من سطح الماء[2].

خامساً- القوارب واستخدامها كوسائل للنقل:

رغم أنه لم يعثر على بقايا أثرية أو صور للقوارب في العصر الحجري القديم، ورغم أنه ليس هناك دليل على أن أصحاب هذه الحضارة قد استخدموا البحر في الانتقال، إلا أنه من المؤكد أنهم استخدموا كتلاً خشبية أو أطواف للانتقال بها في البحيرات والأنهار من وقت لآخر. ولاسيما بعد أن أصبح الصيد يحتل مركزاً كبيراً في اقتصادهم. وإذا كانت القوارب ضرورة حتم وجودها التوسع في صيد الأسماك

(1) وجدت هذه الحبال في فنلندا بالقرب من فيبورج، وفي شمال شرق إستونيا، ويبدو أن أصحاب حضارة كوندا هم الذين قاموا باستخدام الحبال في صناعة الشباك.

(2) المرجع السابق، ص 249.

obeikandi.com

وصنع الشباك، فمن المعروف أن أقدم القوارب التي عثر عليها يرجع تاريخه إلى العصر الحجري الوسيط في أوروبا، حيث وجد في هولندا أحد القوارب أُرجع تاريخه بطريقة التحليل الكربوني 14 إلى 6300 ق.م. وقد صنع هذا القارب من جذع شجرة صنوبر واستخدمت النار في عملية تجويفه. هذا وقد عثر في أسكتلندا على قارب آخر مطمور في رواسب نهر ونسبت صناعته إلى أصحاب الحضارة الماجلموزية. كما أُرجع تاريخه إلى النصف الثاني من فترة بحيرة أنكيلوس. وقد استخدمت النار في تجويف جذع الشجرة التي صنع منها القارب الذي بلغ عرضه في الوسط أقل من متر. ومما هو جدير بالذكر أنه عثر على مجاديف ماجلموزية ذات نصال طويلة أو مستطيلة في كل من الدنمارك وإنجلترا الأمر الذي يشير إلى أن هذه المجاديف ربما استخدمت في تسيير القوارب.

سادساً- اختراع المصابيح والأواني الحجرية:

يبدو أن معرفة الإنسان للضوء الصناعي أثناء الشطر الأكبر من تاريخ حياته لم يتعد سوى لمحات خاطفة من النيران المشتعلة طبيعياً، ولكن من المحتمل أن الإنسان تمكن في بعض الأقاليم حيث كانت الأخشاب متوافرة من جمع الأعشاب واستخدامها كمصابيح تنير له دجى الليل البهيم. وأقدم المصابيح المعروفة هي تلك التي استخدمها صيادو العصر الحجري القديم الأعلى في غرب أوروبا، لإنارة أغوار كهوفهم أثناء عمل فنانيهم بداخلها. وكانت هذه المصابيح عبارة عن صحون صغيرة ضحلة ذات لسان عريض في بعض الأحيان ليكون بمثابة مقبض لها، ولعل من أحسن الأمثلة على تلك المصابيح ذلك الذي وجد في كهف لاموث La Mouthe بالدردون. وقد استخدمت شحوم الحيوانات البحرية كوقود لهذه المصابيح، ورغم أنه لم يعثر على بقايا حوت في كهوف أوروبا التي تعود إلى العصر الحجري القديم، إلا أن صُوره قد ظهرت على جدران كهوفهم، وبالتالي يمكن التكهن بأنهم قد استخدموا شحومه في إضاءة المصابيح.

الأواني والأوعية:

وإلى جانب المصابيح عثر أيضاً بين بقايا هذا العصر على أوانٍ كبيرة (بلاليص) ذات قواعد مدببة صُنعت بطريقة اللفات coil technique وهي تلك

obeikandi.com

الطريقة التي تصقل فيها الأواني بواسطة الحصى وتوضع في أفران درجة حرارتها ليست شديدة الارتفاع.

ومن المحتمل أن أصحاب حضارة العصر الحجري القديم قد استخدموا الأواني الجلدية لوضع السوائل بها، غير أنه ليس لدينا برهان على ذلك، ويبدو أيضاً أن المرأة الإسبانية التي كانت تقوم بجمع العسل إبان العصر الحجري كانت تحمل في يدها حقيبة جلدية تضع فيها ما تجمع[1].

إن أبسط القبائل البدائية المعاصرة لنا تعرف فن حياكة السلال وعمل الأكياس من مختلف أصناف الألياف بما في ذلك الجذور ولحاء الشجر وشعر الحيوانات، ومما يدل على قدم ذلك الفن العملي أنه لا يحتاج إلى أية أداة على الإطلاق. ومن المشكلات التي قابلت الإنسان القديم مشكلة حمل الماء، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يحمل الماء إلى حيث يقيم ويسكن، ولا توجد آثار تبيّن الأدوات التي استخدمها الإنسان القديم في حمل الماء، وعندما اكتشف الأوروبيون قبائل تسمانيا في القرن السادس عشر الميلادي، لم تكن تلك الجماعات البدائية قد حلت تلك المشكلة بعد، ومما ساعد على عدم اهتمامهم بتلك المشكلة كثرة العيون والجداول في تسمانيا، وكان سكان أستراليا الأصليون يحملون الماء في أحواض من الخشب المحفور، وتقوم قبائل البوشمن بخزن الماء في قشور بيض النعام ويحملونه معهم أثناء الصيد، وكان الهنود الحمر يستخدمون دلاء مصنوعة من اللحاء المخيطة مصبوغة باللون الأحمر لحمل المياه، وكذلك استخدموا قِرَباً مصنوعة من جلود الحيوانات[2].

سابعاً- استخدام الملابس:

لا بد أن الملابس حققت ضرورة طبيعية أساسية أثناء العصر الحجري إلى جانب صناعة الآلات والسيطرة على النار. إذ بواسطة هذه المخترعات تمكن النوع البشري من الانتشار في جميع بقاع الأرض وملاءمة حياته لكل أنماط البيئات.

ومع إعداد الآلات المشظاة - التي ربما استخدمت في إعداد الجلود - ظهر

---

(1) المرجع السابق، ص 250-251.

(2) Coon, op. cit., pp.129-130.

إنسان النياندرتال على مسرح الوجود، واضطر أن يحمي نفسه من البرد القارس الذي صاحب الفترة الجليدية الثالثة ودفعه إلى سكنى الكهوف.

وفي العصر الحجري القديم الأعلى ظهرت آلات مختلفة استخدمت في إعداد الملابس. فعلى سبيل المثال، وجدت المخارز الدقيقة التي استخدمت في ثقب الجلود لحياكتها، بينما استخدمت الإبر العظمية المجدلينية في حياكة الملابس بالطريقة نفسها التي يلجأ إليها الأسكيمو الآن في صناعة ملابسهم الجلدية. هذا ويبيّن أحد التماثيل الجرانيتية التي عثر عليها في مالتا Mal'ta بسيبيريا أحد الرجال وهو يرتدي قبعة وسترة وبنطالاً من الجلد غطي بالفراء من الخارج. أما عن تماثيل النساء في هذه الفترة فقد لوحظ أن معظمهن عاريات بسبب معتقدات خاصة فيما عدا واحدة منهن تم تغطية مؤخرتها بسترة صغيرة.

أما من ناحية الحذاء فيظهر من الرسوم التي تركت في كهوف فرنسا أن إنسان العصر الحجري لم يضع في قدميه شيئاً على الإطلاق، كما أن الصيادين لم يربطوا الجلود أو أي شيء آخر في أقدامهم أثناء خروجهم للصيد فوق الجليد. ومما هو جدير بالذكر أن إنسان العصر الحجري القديم لجأ إلى تزيين جسمه ووجهه عن طريق دهنه بالألوان (المغرة الحمراء) أو زخرفة الرموش، ولا نعرف ما هي الدوافع الحقيقية وراء رغبة الإنسان الأول في الزينة، فربما كان الدافع هو إظهار الانتماء إلى قبيلة أو عشيرة معيّنة، أو ربما كانت الرغبة في أن يبدو جميلاً في ألوان شتى كالطيور التي يراها في بيئته. وعلى أي حال لم تظهر أدوات الزينة بمعنى الكلمة إلا في أثناء العصر الحجري القديم الأعلى. فقد عثر في أوروبا على هياكل عظمية مزينة بأدوات عاجية وعظمية كالعقود. كما وجدت قبعات صنعت من الأصداف التي حملت مئات الأميال بعيداً عن موطنها البحري. ولعل أبرز ما صُنع من الأصداف تلك العقود وأردية الرأس التي صاحبت جماجم جريمالدي.

وقد استمرت تقاليد الزينة المحببة لدى أصحاب حضارة العصر الحجري القديم أثناء العصر الحجري الوسيط، إذ ارتدى أصحاب الحضارة الماجلموزية العقود والأساور ذات الأشكال الهندسية المنظمة، كما تحلوا أيضاً بأسنان بعض الحيوانات كالدببة والقطط البرية والوعل[1].

---

[1] د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري: الجغرافيا التاريخية، ص 252-253.